التعبير عن القرآن بـ (الذكر)
فى النظم القرآني
دراسة بلاغية

إعداد
معوض محمد علي الخولي
قسم البلاغة والنقد
كلية اللغة العربية (إيتاي البارود)
جامعة الأزهـر الشريف

مقدمة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد

اللهم بارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد

وبعد

فالحديث عن القرآن الحكيم حديث لا تمله النفوس، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا يزال يجد فيه العلماء والباحثون كل جديد، كلما أبحروا فيه، ولسان حالهم يُردد (كم ترك الأول للآخر)

وعليه

فإن الاشتغال بالقرآن الكريم تلاوة وحفظا وتدبرا وفهما وعملا من أعظم المقاصد وأشرف المطالب، وأنفس ما تنفق فيه الأعمار،وذلك بما اشتمل عليه من مصالح العباد في الدارين، وبما حواه نظمه من بديع التركيب، وكمال الإعجاز، ودقة المعاني ووضوحها.

***- فمن نعم الله على الإنسان أن يعيش مع القرآن، وأن يصبر على دراسته، فإنه معطاء لمن يبذل فيه من وقته وجهده.**

***- ومن فضل الله تعالى أن خبأ في هذا القرآن لكل جيل عطاء، مذ نزل على قلب الحبيب محمد صلى الله عليه وآله وسلم وحتى يقوم الناس لرب العالمين،ولم يقصر فهم القرآن ولا عطاءاته على جيل دون جيل.**

***- ولذا فكل أمة مكلفة بأن تستخرج من نفائس القرآن ولآلئه ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، وسيبقى في القرآن من الكنوز أضعاف ما قيل فيه.**

من هنا

جاءت فكرة هذه الدراسة الموجزة القائمة على تقليب النظر، والكشف عن خصائص التعبير عن القرآن بالذكر في القرآن الكريم.

أهمية الدراسة:

وتأتي أهمية هذه الراسة من أهمية موضوعها، كما قيل:شرف كل علم بشرف المعلوم، فدراسة طرف من بلاغة القرآن إنما هو من شرف القرآن السامي.

وقامت الدراسة على البحث في مقامات وسمات التعبير بـ " الذكر " دون غيره من أسماء القرآن وأوصافه ـ وهي كثر ـ لما تتضمنه لفظة " الذكر" من دلالات أرى أمتنا أحوج ما تكون إلى التنبه لها، وتحقيقها في نفسها، من: الاستمساك به، وتذكر أنه عنوان شرفها، وذكرها الجميل بين الأمم، وما يحويه من مصالحها في العاجلة والآجلة، لاسيما في هذا الزمان الذي ذهلت فيه غالبية الأمة عن دستورها، ومصدر عزها، وعنوان سموها (القرآن).

ولا عجب في ذلك فقد نزل القرآن على أُمة أمية فوجدت فيه شفاءها، ولا غرابة أن يحوي هذا القرآن الشفاء من كل داء لكل الأمة في كل عصر ومصر، وإن لم يؤثر في الخلف كما أثر في السلف فليس ذلك إلا لخلل في الفهم والتطبيق والالتزام، فليقلبوا أنظارهم، وليبحثوا عن العلة في ذواتهم، وليجددوا إيمانهم في أنه لن يصلح الآخر إلا بما صلح عليه الأول، وما صلح الأول إلا بالقرآن وتبيين سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم له.

***ـ هذا وقد قامت الدراسة بعد المقدمة على تمهيد وخمسة مباحث، كشفت عن أشهر المقامات والسياقات التي عُبر فيها عن القرآن بالذكر، ثم خاتمة**

رصدت فيها أهم نتائج الدراسة، ذيلت بقائمة لأهم المصادر والمراجع، ثم بفهرس للمحتويات

وبعـد

فهذا جهد المقل، فالحمل أكبر من صاحبه،لكن شهد الله أني بذلت فيه ما في وسعي، فما كان فيه من صواب فمن الله، وما كان من خطأ وتقصير- وهو لا محالة سمة عمل البشر - فمن عجزي وتقصيري.وحسبي أني اجتهدت.

والله أسأل أن يُبيّض بهذا العمل صحائف أعمالي،وأن يُنزل به شآبيب الرحمة، وواسع المغفرة على والديّ ومشايخي، ومن له حق عليّ، وأن يبارك لي في زوجي ويصلح لي ذريتى إلى يوم الدين. فهو سبحانه المستعان وعليه التكلان.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

كـتبه

معوض محمد علي الخولي

قسم البلاغة والنقد

كلية اللغة العربية (إيتاي البارود)

جامعة الأزهـــر الشريف

تمهيد

- **تدور مادة (ذ ـ ك ـ ر) حول خطور الشئ بالبال بعد غفلة عنه، كما يطلق على الهيئة التي تمكن الإنسان من حفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو بهذا المعنى قريب الشبه، غير أن الحفظ يقال اعتبارا بإحرازه، والذكر يقال اعتبارا باستحضاره.**
- **ثم إن الذكر نوعان: ذكر بالقلب، وذكر باللسان، وكل واحد منهما ضربان:**

(أ) ذكر عن نسيان (ب) وذكر لاعن نسيان بل عن إدامة الحفظ [١]

ومن أمثلة الذكر عن نسيان ما جاء في قوله تعالى (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره)[٢]

كما يطلق الذكر ويراد به إجلال الشئ ومعرفة ذلك ووصفه به ومنه قوله صلى الله عليه وسلم " إن هذا القران ذكر فذكروه " [٣]

هذا ويطلق الذكر على (الكلام الذي شأنه أن يذكر، أي يتلى ويكرر)[٤].

- **<u>ومما تجدر الإشارة إليه</u> أن الذكر " قد أطلق في القران على ما يربو على عشرين وجها ذكرها الراغب في مفرداته، أحد هذه الوجوه أن يراد بالذكر القرآن،ومن أراد المزيد فليرجع إليه [٥]**

---

١) ينظر: مفردات الراغب ٥٠٩/١ (بصيرة في الذكر)

٢) الكهف ٦٣

٣) مفردات الراغب ٤٠٥/٢

٤) التحرير والتنوير ١٦٢/١٤. عند تفسير قوله تعالى: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) النحل ٤٤

٥) مفردات الراغب (بصيرة في الذكر)

***ـ تسمية عجيبة.**

يرى الطاهر بن عاشور أن تسمية القرآن ذكرا (تسمية جامعة عجيبة، لم يكن للعرب علم بها من قبل أن تَّرد في القرآن) [١]

***ـ وجه شبه واعتلاق.**

من أوجه الشبه بين (الذكر) وبين (القران) ـ وكلاهما يطلقان على كلام الله المنزل على قلب الحبيب صلى الله عليه وسلم بواسطة الأمين جبريل عليه السلام ـ (أن الذكر هو الكلام الذي يلقى للناس لقصد وعيه ' والقران بقصد تلاوته) [٢]

فالسمة الغالبة على إطلاق الذكر هي لفت الانتباه إلى ضرورة وعيه وتدبره والانتفاع بعبره.

وعليه فإطلاق الذكر على القرآن من هذا الجانب لكونه مقرا للتذكر ومصدرا للتذكير ومكمنا للاعتبار والاتعاظ.

- **بينما السمة الغالبة على إطلاق القرآن هي التأكيد والتنبيه على تلاوته وتكراره وترديده، وهذا مأخوذ من معاني مادة (ق. ر.أ) ومنه قوله تعالى (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه)** [٣]

فكل لفظة ملموح فيها جانب لا ينهض به غيرها.

وغني عن التذكير أن كثرة الأسماء والأوصاف دليل شرف المسمى وعلو قدره وسمو منزلته

فجَلّ من أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا.

- **هذا وقد تنوعت مقامات ورود الذكر تعبيرا عن القرآن على نحو ما ستبينه الصفحات التالية.**

---

١) التحرير والتنوير ١٦/١٤ عن تفسيره قوله تعالى: (وقالوا يأيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون) الحجر ٦ وهو من شواهد هذا البحث.

٢) التحرير والتنوير ١٦/١٤

٣) القيامة (١٨)

المبحث الأول

التعبير عن القران بالذكر في مقام

(التكذيب بالتنزيل وبالرسالة)

ورد التعبير عن القرآن بالذكر في مقام التكذيب بالقرآن وبمن أنزل عليه هذا القران (صلى الله عليه وسلم)ومن أوضح الشواهد على هذا قوله تعالى:

(وقالوا يأيها الذي نُزّل عليه الذكر إنك لمجنون) [١]

فهذه الآية من مطلع سورة الحجر (والتي نزلت في الفترة الحرجة مابين عام الحزن وعام المهجرة، وكانت حركة الدعوة في تلك الفترة تكاد تكون قد تجمدت، بسبب موقف قريش العنيد منها ومنه صلى الله عليه وسلم عن علة تكذيبهم وعنادهم وهى لا تتعلق به ولا بالحق الذي معه، لكنها ترجع إلى العناد الذي لا تُجدي معه الآيات البينات ومن ثم يسلي الرسول ويواسيه)[٢]

وعليه فالآية واردة في سياق (بيان كفرهم بمن أنزل عليه الكتاب المتضمن للكفر به)[٣]

- **وسَمَوه تنزيلا بقولهم (.. نُـزّل عليه) رغم كفرهم به وصدهم عن سبيله وتكذيبهم رسوله (تهكما واستهزاء)**[٤] **على شاكلة قوله تعالى على**

---

١) الحجر (٦)

٢) في ظلال القرآن ٢١٢١/٤ بتصرف يسير ـ دار الشروق ـ ط السادسة ـ ١٩٧٨م

٣) روح المعاني ١١/١٤

٤) الكشاف ١٧٧/٢ ، نظم الدرر ٤٩/٦ روح المعاني ١١/١٤

لسان فرعون (إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون)[1] أو يكون مرادهم (يأيها الذي نزل عليه الذكر في زعمه واعتقاده وعند أصحابه)[2]

- **ويلاحظ أن آية الحجر هنا أدخل في العناد والكفر وتصعيد تكذيبهم، فقد كفروا فيها بالمُنَزّل – القرآن – وبالمُنزَل عليه (صلى الله عليه وسلم) معاً، بخلاف آية الزخرف(وقالوا لولا نُزل هذا القران على رجل من القريتين عظيم) [3]**

فقد تضمنت تكذيبهم بالمنزل عليه فقط.

- **ومما يدل على كون الآية هنا دالة على مبالغتهم في العناد والكفر والتكذيب**

أن السياق لما انتهى من تهديد الكفار ـ مطلع السورة ـ شرع في (بيان بعض عتوهم في الكفر وتماديهم في الغي، مع تضمنه لبيان كفركم بمن أنزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب)[4]

ومما عم كون الذكر هنا ملموحا فيه معنى الرفعة والشرف والقدر العالي هو التعبير بضمير العظمة لإفادة علو الجانب والشأن في قوله:(إنا نحن نزلنا الذكر)

*** *** *** ***

---

١) الشعراء ٢٧

٢) تفسير الرازي ٦٢/٦، وأضواء البيان للشنقيطي ٩١/٣

٣) الزخرف ٣١

٤) فتح القدير ٤/

ومن شواهد هذا المقام – كذلك – قوله تعالى:

﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ الأنبياء ٥٠

فالآية الكريمة واردة في مقام (تأييد الرسول صلى الله عليه وسلم بكتاب مبين، وتلقي القوم ذلك الكتاب بالإعراض والتكذيب)[١]

وفي هذا التأييد ما فيه من الذكر والشرف ورفع قدر المنزل عليه هذا الكتاب (صلى الله عليه وسلم)، الأمر الذي ناسبه التعبير عن القرآن بالذكر.

- وقد احتشدت أساليب أخر في الآية خدمة وتقريرا لهذا الغرض أعنى: رفع قدره وعلو شرفه ونباهة ذكره صلى الله عليه وسلم، وتتجلى في الآتي:-

أ - التعبير باسم الإشارة القريب (إيماء إلى سهولة تناوله ووضوح أمره وقيل لقرب زمانه)[٢]

ب- إسناد الإنزال إلى ضمير الجلالة المفيد للعظمة وعلو الشأن (أنزلناه)

ج- التعبير عن الوحي إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإنزال (لما يقتضيه الإنزال من رفعة القدر إذ اعتبر مستقرا في العالم العلوي حتى أنزل إلى هذا العالم)[٣]

مقابل التعبير " بالوحي " في جانب الإنزال إلى موسى عليه السلام

---

١) التحرير والتنوير ٩٠/١٧

٢) روح المعاني ٥٧/١٧ ونظم الدرر ٨٠/٧

٣) التحرير والتنوير ٩٠/١٧

د- وصف القرآن بالذكر عقب وصف التوراة بكونها فرقانا وضياء وذكرا للمتقين، فلفظ الذكر (جامع لجميع الأوصاف المتقدمة)[١]

هـ- وصف هذا الذكر بالبركة إشارة إلى (أنه أثبت الكتب وأكثرها فوائد و لا شئ أعظم بركة من هذا القرآن، فإن كل خير ونعمة، وزيادة دينية أو دنيوية أو أخروية فإنها بسببه وأثر عن العمل به)[٢]

- **ويمكن أن يكون سر التعبير بالذكر هنا هو (موافقته لما مر في صدر السورة الكريمة)[٣] إشارة إلى قوله: " فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون " [٤]**

- **ثم موافقة التعبير عن التوراة بـ" الذكر" في الآية السابقة على موضوع الشاهد " ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين" [٥]**

فليست الوحدة بين التوراة والقرآن وحدة مصدر فحسب،بل هناك (وحدة حتى في الاسم... وجعل التوراة كالقرآن " ذكرا للمتقين " تذكرهم بالله وتبقى لهم ذكرا في الناس. وماذا كان بنو إسرائيل قبل التوراة ؟)[٦]

وهكذا أنتم أيها المنكرون لهذا الذكر من العرب، ماذا تكونون لولا القرآن ونزوله بلغتكم لهدايتكم، فرفع في العالمين ذكركم على حد قوله تعالى:

---

١) السابق

٢) نظم الدرر٨٠/٧، والرازي ٢٩/١٢ والسعدي ٢٣٧/٥

٣) روح المعاني ٣١٥/٥

٤) الأنبياء ٧

٥) روح المعاني ٣١٥/٥ بتصرف ، الأنبياء ٤٩

٦) في ظلال القرآن ٢٣٨٤/٤

(وإنــه لذكر لك ولقومك) أفبعد ذلك أنتم له منكرون ؟

- وأري أن التعبير بـ" الذكر" هنا في غاية التناسب مع الاستفهام الإنكاري في خاتمة الآية " أفانتم له منكرون " لأنه إذا كان القرآن ذكرا مباركا – وهو كذلك – فقد حق عليهم قبوله قبولا حسنا، وتلقيه بالتسليم والانقياد لا بالإضراب عنه وإنكاره – كما فعلوا – فذلك من مخالفات الفكر السديد والعقل السليم والفطر السوية والقرآن إنما سمى " ذكرا" (لأنه يذكر ما ركزه الله في العقول والفطر من التصديق بالأخبار الصادقة، والأمر بالحسن عقلا، والنهي عن القبيح عقلا)[1]

- فكأني بالتعبير بالذكر هنا ينكر أن يكون لهم سداد رأي أو صحة عقل وإلا ما أنكروا ما هم منكرون

إذ كيف تكفرون به وهو الذكر المبارك ؟ ثم كيف تكفرون به مع كونه منزلا من عند الله مع اعترافكم بكون التوراة منزلة من عنده، فمالكم كيف تحكمون؟

***** ***** *****

١) تفسير السعدي ٢٣٧/٥

ومن شواهد هذا المقام ـ أيضا ـ قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ ﴾ فصلت ٤١

فالآية واردة في مقام رد التكذيب والكفر بهذا القران، وتأكيد ربانية مصدر هذا الذكر، الأمر الذي (يكاد يجعل هذا الموضوع هو موضوع السورة الرئيس)[1]

فقد كثر فيها الحديث عن كفرهم بهذا الذكر وصدهم عنه صدودا ومن ذلك قولهم في مطلع السورة:"... فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون. وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب "[2] ثم قولهم وسط السورة:(وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)[3]

وفي مواجهة كثرة تكذيبهم وردهم لهذا الذكر و الاختلاقات التي يختلقونها ـ كما مر ذكره ـ

يأتي التفصيل المثير والرد المفحم على مواقفهم تلك، ومن تلك قوله تعالى: (إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا)[4]

---

١) في ظلال القرآن ٣١٠٥/٥

٢) فصلت ٤-٥

٣) فصلت ٢٦

٤) فصلت٤٠

وقوله:(... قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك يُنادوْن من مكان بعيد)[١]

ثم قوله في نهاية السورة:(قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد)[٢]

ثم قوله تعالى هنا:(إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز) وعليه فالتعبير عن القران " بالذكر " هنا في تمام الملائمة ' لما فيه من معاني الرفعة والشرف والنباهة لهذا القران الذي حاولوا النيل منه والتقليل من شأنه وهيهات هيهات.

***ـ وفي كل هذا مزيد تبشيع لكفرهم به وإلحادهم في آياته لأنهم كفروا بما من شأنه رفع قدر و إعلاء شان مَن اتبعه، وعليه فقد فوتوا على أنفسهم فرصة الارتفاع والذكر الحسن و إعلاء القدر بكفرهم بهذا القران المشتمل على تذكير العباد بمصالحهم الدنيوية والأخروية.فساء ما كانوا يصنعون.**

ففي إيمانهم به وتصديقهم إياه (ذكر للعرب وسمعة حسنة لهم بين الأمم يخلد لهم مفخرة عظيمة، وهو كونه بلغتهم ونزل بينهم، كما قال تعالى:" وإنه لذكر لك ولقومك "[٣] وفي قوله تعالى " لما جاءهم" إشارة إلى هذا المعنى الثاني)[٤]

---

١) فصلت ٤٤

٢) فصلت ٥٢

٣) الزخرف ٤٤

٤) التحرير والتنوير ٣٠٨/٢٤

***– والتشنيع عليهم وتبكيتهم أفيد من جهات عدة في السياق منها:-**

أ- حذف خبر "إن " من قوله تعالى " إن الذين كفروا بالذكر" والذي أشاع أن فعلتهم لا ينطبق عليها وصف لشدة بشاعتها) [١]

ب- كما أتى تقريعهم والتشنيع عليهم من مجاوزة التركيب ذكر الخبر إلى تعديد أوصاف هذا الذكر الذي كفروا به، من كونه كتابا عزيزا أي(لا يوجد مثله فهو يغلب كل ذكر ولا يغلبه ذكر، ولا يقرب من ذلك، ويُعْجِز كلَّ معارض، ولا يَعْجِز أصلا عن إقعاد مناهض)[٢]

فقوله:" وإنه لكتاب عزيز " جملة حالية(مفيدة لغاية شناعة الكفر به)[٣]

- كما أنه " لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه " بمعنى أن (الباطل لا يتطرق إليه ولا يجد إليه سبيلا من جهة من الجهات حتى يصل إليه ويتعلق به)[٤]

ولكون مُنَزل هذا الذكر حكيما في كل شأنه، يضع كل شئ موضعه(فإن كلام الحكيم يأتي محكما متقنا رصينا لا يشوبه الباطل)[٥]

ثم إنه "حميد" أي مستحق الحمد الكثير على ماله من صفات الجلال ونعوت الكمال وكثيرة الآلاء وفي طليعتها إنزال هذا الذكر المشتمل على (تمام

---

١) في ظلال القران ٣١٠٥/٥

٢) نظم الدرر ٢٥٨/٩

٣) روح المعاني ١٢٧/٢٤

٤) الكشاف ١٢٢/٤

٥) التحرير والتنوير ٣٠٩/٢٤

الحكمة وعلى تحصيل المصالح والمنافع، ودفع المفاسد والمضار التي يحمد عليها)[١] لا أن يلحد في آياته ويكفر به !

فهذا في طياته مزيد تقريع وتوبيخ وتشنيع عليهم لكفرهم به.

- **كما أفيد زيادة التقريع والتشنيع عليهم هنا من طريق آخر وهو:-**
- **التعبير بالظاهر "الذكر" موضع " الضمير" الراجع إلى الآيات في قوله " إن الذين يلحدون في آياتنا " وما في ذلك من(زيادة التحسير لهم وسوء مغبة الملحد فيه)[٢]**
- **ثم إن قوله " لما جاءهم " قد أفاد أنهم لم يتوقفوا ويتمعنوا ويتدبروا(فدل ذلك منهم على غاية العناد)[٣]**
- **ويلاحظ هنا أن الذكر في هذا الموضوع قد وصف بنوعين من الصفات:-**

أ- **صفات مفيدة لفخامته الذاتية وهي أنه"كتاب عزيز"، " لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه "**

ب- **صفات مفيدة لفخامته الإضافية وهي كونه " تنزيل من حكيم حميد " وكل ذلك لتأكيد بطلان الكفر بالقرآن [٤]**

ج ــ كما أن "الذكر" ومن معانيه: الشرف والذكر الحسن والنباهة ورفع قدر المنتسب إليه

---

١) تفسير السعدي ١٣٦/٤

٢) روح المعاني ١٢٧/٢٤

٣) نظم الدرر ٢٥٨/٩

٤) ينظر: روح المعاني ١٢٧/٢٤

ملائم جدا لقوله تعالى:﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾[1] وما فيه من (تسلية له صلى الله عليه وسلم عما يصيبه من أذية الكافر من طعنهم في كتابه)[2]

- كما أن التعبير بالذكر هنا ناسب قوله تعالى: "لما جاءهم" وما أفادته " لما "(من معنى مفاجأتهم بالكفر أول ما جاء،وما فيه من التعظيم لشان الآيات والتمهيد للحديث عن كمال الكتاب)[3]

- ثم إن التعبير بالذكر هنا مناسب لمقام التنبيه والتذكير بأن الكافرين بهذا الذكر الذي جاءهم معاندون وهالكون و يُنادوْن من مكان بعيد – كما هنا - فالقرآن هنا ذكر (لأنه يذكر الناس كلهم بما يغفلون عنه مما في الغفلة عنه فوات فوزهم)[4]

---

١) فصلت ٤٣

٢) روح المعاني ١٢٧/٢٤

٣) السابق

٤) التحرير والتنوير ٣٠٨/٢٤

المبحث الثاني
التعبير بالذكر عن القران في مقام :-
(بيان حكمة إنزال هذا الذكر)

ومما أوثر فيه التعبير عن القرآن بالذكر مقام تبيين حكمة نزول هذا القرآن على المنزل عليه صلى الله عليه وسلم.

***ـ ومن أوضح شواهد هذا المقام قوله تعالى:**

(وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) النحل ٤٤

فقد تضمنت الآية حكمتين من حكم انزال هذا الذكر (القرآن) على قلب الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم وهما:-

(١) تبيينه صلى الله عليه وسلم للناس ما نزل اليهم في هذا الكتاب من التكاليف ونحو ذلك. وهو ما تضافرت عليه غير آية في هذا الذكر المنزل من مثل قوله تعالى:

(وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه)[١] و(ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ)[٢]

(٢) التفكر والتدبر في هذا الذكر المنزل والاتعاظ به، على حد قوله تعالى: " كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا اياته وليتذكر أولوا الألباب "[٣]

ومن بلاغة إيثار التعبير بـ" الذكر" هنا:-

أ- تمام مناسبته للحكمة من إنزاله وهى " لتبين للناس " والبيان للناس لن يكون مرة واحدة، انما هو متكرر دوما، والذكر يتضمن هذا

---

١) النحل ٦٤

٢) النحل ٨٩

٣) ص٢٩

المعنى، اذ هو الكتاب المتلو مرة بعد مرة ويفيد ذلك تكراره دوما- فهو الكلام الذي شأنه أن يذكر اى: يتلى ويتجدد.

فتكرار الذكر في مقابله تكرار التبيين للناس.

تناسب ثان:

كما أن ثمة تناسبا آخر بين التعبير بـ "الذكر" وبين " لتبين للناس " وهوأن القرآن إنما سمى ذكرا لاشتماله على(ذكر ما يحتاج اليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة)(١)

والتبيين – كذلك – انما يكون شاملا لكل ما يحتاج الناس إليه من أمور دينهم، وإلا ما صار تبيينا.

تناسب ثالث:-

***- كما أرى التعبير بالذكر هنا أصاب موضعه من زاوية ثالثة وهي:أن الذكر(موعظة وتنبيه للغافلين) (٢) وهو هنا من (التذكير اما بمعنى الوعظ او بمعنى الايقاظ من سنة الغفلة، واطلاقه على القرآن إما لاشتماله على ما ذُكر أو لأنه سبب له) (٣) وهو ما يتسق مع حكمة إنزاله بيانا للناس ، فالتبيين للناس لون من ألوان التنبيه والتذكير.**

تناسب رابع:

- كما يمكن أن يكون السر في إيثار التعبير عن القرآن بـ الذكر" هنا هو الإشارة الى مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم ورفعته وعلو شأنه ' وذلك رد على تكذيب المشركين بنبوءته صلى الله عليه وسلم وبما أُنزل عليه

---

١) تفسير السعدي ٢٠٦/٤

٢) الكشاف ١٩١/٢ ، ابو السعود ٥٩/١٢

٣) روح المعاني ١٥٠/١٤

وذلك في قوله تعالى من السورة نفسها: (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الاولين)[١]

- ثم تزداد الملائمة هنا حسنا بمجئ الذكر – بمعنى الشرف والنباهة وعلو الرتبة – بتوجيه الخطاب اليه صلى الله عليه وسلم (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم) بعد أن كان الكلام جاريا على أسلوب الغيبة، في قوله تعالى:(وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه)[٢] وفي توجيه الخطاب إليه صلى الله عليه وسلم (تنويه بمنزلته بأنه في منزلة الرسل الأولين)[٣] فضلا عما فيه من تأنيس وسلوى.

ومجئ الذكر هنا ـ بمعنى الشرف والقدر العالى ـ متآزر مع تبيينه صلى الله عليه وسلم للناس ما أنزل إليهم وذلك(بما أعطاه الله من الفهم الذي فاق فيه جميع الخلق،واللسان الذي هو أعظم الألسنة وأفصحها وقد أوصله الله فيه إلى رتبة لم يصل إليها أحد)[٤] فذلك من شرفه صلى الله عليه وسلم وسمو مقداره عند ربه.

- **كما يمكن القول إن التعبير بالذكر هنا وإن جاء مناسبا لبيان مكانة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفعة درجته عند الله ـ في مقابلة الذين كفروا بما أُنزل عليه وأنكروا نبوءته ـ فقد تضمن الإشارة الى رفعة وعلو شأن هذا الذكر المنزل عليه (القرآن) وذلك في مواجهة وصف**

---

١) النحل ٢٤

٢) النحل ٣٥

٣) التحرير والتنوير ١٦٠/١٤

٤) نظم الدرر ٨٥/٦

المشركين للقرآن بقولهم في السورة ذاتها "إن هذا إلا أساطير الأولين"(١) فيصير في التعبير بالذكر هنا تنزيه وإعلاء شأن المُنـزَل والمُنزل عليه صلى الله عليه وسلم.

- **وليس الامر هكذا فحسب، بل يتسع المعنى ليتضمن – كذلك – التنويه برفعة شأن المُنَزل فيهم هذا الذكر- وهم المخاطبون بهذا الذكر – وهذا على اعتبار أن قوله " ما نُزل إليهم " هو عين الذكر في قوله " وأنزلنا اليك الذكر" ففيه ذكر في موضع الإضمار(٢)، والأصل: وأنزلنا اليك الذكر لتبينه للناس.**

وغرض الذكر في موضع الإضمار هنا بيان (أن إنزال الذكر إلى النبي صلى الله عليه وسلم هو إنزاله إلى الناس)(٣)ففيه رفع لأقدارهم على شاكلة قوله تعالى: (لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم)

***- ومما يقوى هذا التوجيه ذهاب ابن عباس إلى أن المراد بأهل الذكر في الآية السابقة على هذه (فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون)(٤)هم (أهل القرآن)(٥)**

وعليه فقد أوثر التعبير بالذكر هنا:-

أ- للتنويه بشان المنزل " القرآن " رداً(على قولهم " إن هذا إلا أساطير الأولين "

---

١) النحل ٢٤

٢)التحرير والتنوير ١٦٤/١٤

٣) السابق

٤) النحل ٤٣

٥) القرطبي ٤٦/١٠ ، فتح القدير ٢٠٥/٣

ب- للتنويه بشأن المُنزل عليه " محمد صلى الله عليه و سلم" في مواجهة إنكارهم نبوته

جـ- للتنويه بشأن المُنَـزَل فيهم هذا الذكر.

***- ولم يقتصر التناسب بين " الذكر" وبين حكمة انزاله (لتيين للناس) بل تعداه الى المناسبة بينه وبين ختام الآية(ولعلهم يتفكرون)- وهى في الوقت ذاته حكمة ثانية من إنزال الذكر- من حيث تهدف خاتمة الآية إلى(تهيئة تفكر الناس فيه وتأملهم فيما يقربهم الى رضا الله تعالى) (١) أو التفكر في بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم للقرآن،وأن يعوه بأفهامهم، فهو وحى من وحى،وذلك أمر لن يتأتى إلا بتكرار تلاوته وتقليب النظر والتفكر فيه وهو لُبّ معنى الذكر.**

- **وعجيب أن تتشابه خاتمة الآية هنا بالدعوة والتحريض على التفكر في هذا الذكر(لعلهم يتفكرون)وبين الحض على التعقل فى الآية الأخرى(لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون.**

فتبارك الذي نَـزَّل هذا الذكر على عبده.

***** ***** *****

١) التحرير والتنوير ١٦٤/١٤ وأبو السعود ٥٩/١٢

المبحث الثالث

التعبير عن القرآن بـ "الذكر" في مقام

(الحديث عن الأمم السابقة للاتعاظ بها والتذكير من الغفلة)

ومن المقامات التي عبر فيها عن القرآن بالذكر مقام الحديث عن الأمم السابقة للاعتبار بها والاتعاظ

ومن أبرز شواهد هذا المقام قوله تعالى:-

(كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا) طه٩٩

فالملاحظ أن التعبير بـ (الذكر) هنا جاء متوسطاً الحديث عن قصة موسى ثم قصة آدم عليهما السلام.

|*- و أوثر التعبير بالذكر هنا: لكون الغرض من القصّ على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما يقول الزمخشري وغيره (تكثيرا لبيناتك وزيادة فى معجزاتك)(١)

***ـ وعليه فالذكر مستعمل هنا بمعنى الرفعة وعلو الشان والنباهة (والتنويه بشأن القرآن بالنسبة إلى من أنزله ومن أُنزل عليه)(٢).**

***ـ وقد تُفاد معاني الشرف وعلو المقام والنباهة هنا من كون الغرض من قصّ أنباء السابقين هو بيان صدق نبوته صلى الله عليه وسلم(لأنه أُميٌّ لا يكتب ولا يقرأ الكتب، ولم يتعلم أخبار الأمم وقصصهم، فلولا أن الله أوحى إليه ذلك لما عَلِمه)(٣)**

---

١) الكشاف ٥٧/٣، نظم الدرر ٥٢/٧، الرازي ٥٤/٢٢

٢) التحرير والتنوير ٢٣٥/١٦ تعليقا على قوله تعالى: "وهل أتاك حديث موسى صدر سورة طه

٣) أضواء البيان ٢٩٩/٤

- **ثم إن التعبير بالذكر – بهذا المعنى – مناسب أى مناسبة للتعبير بقوله:" آتيناك " مجاورا لقوله:"من لدنا" وذلك تنويها – كما يقول الطاهر بن عاشور(بشأن القرآن بأنه عطية كانت مخزونة عند الله فخَص بها خير عباده)(١)**
- **وقد يكون القصّ هنا للعبرة والتذكر وإيقاظ الهمم (ليعتبر السامع ويزداد المستبصر في دينه بصيرة وتتأكد الحجة على من عاند وكابر)(٢) وإلى مثله ذهب الرازي بقوله**

(وليكثر الاعتبار والاستبصار للمكلفين بها في الدين)(٣) ثم بدليل وروده في سياق ذكر الأمم السابقة والأنباء الماضية، وما جرى عليهم من قدر الله وسنته في خلقه، ففي هذا(ذكر يتذكر به، ويتعظ أهل العقل والفهم، وهو هذا القرآن الذى أنزله الله عليه، فجعله ذكرى للعالمين)(٤) (٣) ولذا استُصْحب معنى التذكير والوعظ والاعتبار في " الذكر " فجئ به هنا عقب هذه القصص والأخبار، لكونه حقيقا بالتذكر والاتعاظ والاعتبار. على حد قول الشوكاني: (المراد بالذكر: القرآن، وسمى ذكرا لما فيه من الموجبات للتذكر والاعتبار)(٥) ونحا صاحب الظلال المنحى ذاته بقوله: (ويُسمى القرآن

---

١) التحرير والتنوير ٣٠٢/١٦

٢)الكشاف٥٧/٣

٣) الرازي ٥٤/٢٢

٤) تفسير الطبرى ٢٣١/١٦

٥) فتح القدير ٤٧٨/٣

ذكرا،فهو ذكر لله ولآياته،وتذكير بما كان من هذه الآيات فى القرون الأولى)(١).

***ـ ولا يمنع أن يكون النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو المعنىُّ بالتذكير والاعتبار وشحذ الهمة هنا،فقد قُص عليه من نبأ أخيه موسى عليه السلام(ليتأسى به في الصبر على تحمل أعباء الرسالة ومقاساة المصاعب،وتسلية له بان الذين كذبوه سيكون جزاؤهم جزاء من سلفهم من المكذبين)(٢).**

***ـ ويُرشِح ذلك المسلك أنه بعد الحديث عن قصة أبيه آدم عليه السلام "ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما" (٣) جاء التوجيه بالصبر في قوله " فاصبر على ما يقولون "**

تأكيدا على قيام السياق على فكرة التذكير والوعظ والاعتبار وشحذ الهمة والصبر على مشاق الرسالة وأعباء الطريق.

***** ***** *****

١) في ظلال القرآن ٢٣٥٢/٤

٢) التحرير والتنوير ١٠٠٦/٤ تعليقا على قوله " وهل أتاك حديث موسى" صدر سورة طه .

٣) طه١١٥

المبحث الرابع
التعبير عن القرآن بالذكر في مقام
"التنويه بشرف القرآن وعلو شأنه"

قد يرد وصف القرآن بـ " الذكر " في مقام التنويه بشرف القرآن وعلوشأنه ومن أبرز شواهد ذلك قوله تعالى: (ص والقرآن ذي الذكر)

- **فالآية واردة في معرض بيان حال المكذبين بالقرآن وبمن أنزل هذا القرآن على قلبه الشريف.**

- **وتأتي مناسبة التعبير عن القرآن بالذكر هنا من غير جهة واحدة: فبالنظر الى علاقة مطلع سورة "ص" هنا بخاتمة الصافات قبلها، وقول الجاحدين فيها (لوأن عندنا ذكرا من الاولين)[1] نجد التعبير بالذكر هنا ناظرا إلى تعبيرهم بالذكر هناك، رادا عليهم – بإفحام – إنكارهم، مشيرا إلى خذلان المنازعين فيه**

- **فقد استهلت سورة (ص) بتفصيل ما أُجمل في " الصافات " وذلك حين ذكرت علة كفرهم " بالذكر "**

- ***- ومنهج بيان العلائق واستنظهار المناسبات بين السور، وجهة ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها، منهج جليل وهو- كما يقول شيخنا العلامة د/محمد أبو موسى – حرس الله مهجته –**

- **(من أبواب البلاغة العالية التي تروع من غير أن تكون داخلة تحت مصطلح من مصطلحات متون علم البلاغة، لأنها علاقات معان تتفق**

---

١) الصافات ١٦٨

وتختلف، وتتقارب وتتباعد ولها في تقاربها وتباعدها درجات. كل ذلك بتدبير دقيق واعتبارات وسياقات ومقامات منها ظاهر وخفي)[1]

- **وللإمام البقاعي في تفسيره " نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" جهد وعطاءات في هذا الجالنب لايكاد يوجد مثلها عند غيره.**
- **وكما يقول شيخنا د/محمود توفيق سعد – نفع الله بعلمه وعمله – فإن:**

(استبصار موقع السورة في السياق الكلي لترتيل القرآن الكريم مُعِين على استكشاف حركة المعنى فيها مبدأ ومنتهي، واستكشاف علاقة المعاني الكلية والمعاني الجزئية فيها بما سبقها وبما سيتلوها تأسيسا وتأكيدا وإجمالا وتفصيلا)[2]

مناسبات التعبير بالذكر هنا:ـ

- **وقد يكون سر وصف القرآن بالذكر هنا هو مناسبة القسم الوارد في سياقه الوصف، وذلك لأنه (لما كان القسم لا يليق ولا يحسن إلا بما يعتقد المُقسَم له شرفه قال" ذي الذكر " أي الموعظة والتذكير بما يعرف، والعلو والشرف والصدق الذي لا ريب فيه عند كل أحد، فكل من سمعه اعتقد شرفه وصدق الآتي به)(٣)**

---

١) من أسرار التعبير القراني: دراسة تحليلية لسورة الأحزاب – ص ٢٤ – ٢٥ ـ د محمد أبو موسى ط الثانية ١٤١٦ – وهبة

٢) العزف على أنوار الذكر: معالم الطريق إلى فقه المعنى القراني في سياق السورة – د:محمود توفيق محمد سعد – ص ٦٢ – ط أولى ١٤٢٤ هـ – دار الكتب الجامعية بشبين الكوم.

٣) نظم الدرر ١٢٥/٩

- **كما أن وصف القران بـ" الذكر " ـ بمعنى الشرف والشهرة ـ فيه تنويه بشأن القرآن(لأن " ذي" تضاف إلى الأشياء الرفيعة فتجرى على متصف مقصود التنويه به)(١)**

وهذا الوصف يُشعر بأنه (ذكر وموقظ للعقول فكأنه قيل: إنه لذكر ولكن الذين كفروا في عزة وشقاق يجحدون أنه ذكر ويقولون سحر مفترى وهم يعلمون أنه حق)(٢)

- **وقد يكون وصف القرآن بالذكر ناظرا الى جواب القسم فيكون التقدير مثلا (أقسم بالقرآن أو بصاد وبه إنه لمعجز أو لواجب العمل به أو لحقيق بالإعظام)(٣)**

***ـ وأيما كان الجواب والتقديرات، فكلها استدعت التعبير بالذكر، وأرى أن الجواب الأول " إنه لمعجز " ناظرإلى قوله تعالى: " لو أن عندنا ذكرا من الأولين " ـ في آخر الصافات ـ أوإلى قوله: "وقال الكافرون هذا ساحر كذاب " (٤)فجاء القسم وجوابه هنا لإثبات إعجازه وتأكيد ربانيته.**

***ـ وعلى الجوابين الآخرين "إنه لواجب العمل به "ـــ " إنه لحقيق بالإعظام " فالسياق ناظر إلى قوله تعالى " بل الذين كفروا في عزة وشقاق " ويجوز نظره إلى قوله: " لوأن عندنا ذكرا من الأولين " فيكون الجواب**

---

١) التحرير والتنوير ٢٣٣/٦

٢) السابق

٣)أبو السعود ٧/١٨

٤) سورة ص ٤

مقابلة لموقفهم من القرآن، وإنه لواجب العمل به فضلا عن كونه حقيقا بالإعظام.

***ـ ويذهب القرطبي إلى أن القرآن ذي الذكر بمعنى: ذي الشرف لأن (من آمن به كان شرفا له في الدارين، كما قال تعالى: " لقد أنزلنا كتابا فيه ذكركم " اى شرفكم، وأيضا القران شريف في نفسه لإعجازه واشتماله على مالا يشتمل عليه غيره)(١)**

وفوق ما يفيده كلام القرطبى ـ من كون الإيمان بهذا الذكر شرفا لصاحبه ـ فإنه مفيد التشنيع والتوبيخ لهؤلاء ' لأنهم كفروابه فسوف يعلمون، ولأنهم في عزة وشقاق.

- **ثم إنه أشار إلى أن للقران شرفا في ذاته لتفرده بما لا يحويه غيره.**
- **وهذا قريب من كلام الألوسي عند قوله تعالى: " إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم " حين ذكر نوعين من أوصاف القرآن**

(أ) نوع يفيد فخامته الذاتية

(ب)نوع يفيد فخامته الإضافية (٢)

***ـ وتقرير شرف القرآن وعلو شأنه لم ينهض به وصف القرآن بالذكر فحسب،إنما قرره – كذلك – القسم بالقران نفسه.**

فالقسم به ثم وصفه بـ" ذي الذكر " يزهق قولهم: " لو أن عندنا ذكرا من الأولين " وقولهم " هذا ساحر كذاب " ومن باب أولى كفرهم به " فكفروابه"

---

١) القرطبي ٦٥/١٥ والآية من شواهد هذه الدراسة

٢) الآية من شواهد هذه الدراسة

وإذا صح ذلك، فقد تضافرت عدة أساليب على تقرير شرف ورفعة هذا القرآن، وتاكيد ربانيته هنا وهي:-

أ- القسم به، ولا يُقسم إلا بعظيم على أمر عظيم جليل.

ب- وصفه بكون " ذي الذكر" ومن معانيه: ذي الشرف في نفسه ويكسب الشرف من آمن به.

ج- مجئ حرف الإضراب في معنى حرف الاستدراك لتقوية المعنى المراد.

و يجوز أن يكون الذكر هنا بمعنى الوعظ والتذكير، وإليه ذهب غير واحد(١)

ووصِف القرآن بالذكر بمعنى التذكير لأنه (مذكر سامعيه تذكيرا ناجعا)(٢)

سؤال وجواب

***- وربما يسأل سائل إذا كان القرآن مقرا للوعظ وتذكير الناس بما هم عنه غافلون فما السر في عدم تذكر الكفار وعدم انتفاعهم به ؟**

***- ويأتي قوله: " بل الذين كفروا في عزة وشقاق " بيانا وجوابا عن هذا السؤال(فعدم تذكر الكفار ليس لضعف في تذكير القران، ولكن لأنهم متعذرون مشاقون، فحرف "بل" في مثل هذا بمنزلة حرف الاستدراك،والمقصود منه تحقيق أنه ذو ذكر، وإزالة الشبهة التي قد تعرض في ذلك)(٣)**

---

١) انظر تفسير الطبري ٤٤٣/٢٠ ، أبو السعود ٧/١٨، والبحر المحيط ٥٠١/٧، فتح القدير ٦٤٢/٤، والشنقيطي في أضواء البيان٣/٧ ونبه إلى أن مجئ الذكر هنا بمعنى التذكير والوعظ هو قول الجمهور.

٢) التحرير والتنوير ٢٣٣/٦

٣) السابق

***ـ ففي الاستدراك هنا كشف لسبب إعراضهم عنه،وجاءت العزة المتصفون بها مؤنثة(إشارة إلى ضعفها وبشارة بسرعة زوالها وانقلابها إلى ذُل)(١)**

- **وقد يكون " الذكر " هنا بمعنى: المشهور، من قولهم: فلان مذكور بمعنى مشهور.**

- **ومجئ الذكر بهذا المعنى وصفا للقرآن، إذ كيف سولتْ لهم أنفسهم ـ وقد جاءهم القران المذكور المشهور ـــ أن يقولوا : " لو أن عندنا ذكرا من الأولين " ؟!**

- **أو أن يقولوا:(هذا ساحر كذاب) ناهيك عن كفرهم به (فكفروا به فسوف يعلمون).**

********* ********** **********

١) نظم الدرر ١٢٥/٩

****ومن أبين الشواهد على هذا المقام ـ كذلك ـ قوله تعالى :(وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ) فصلت ٤٤**

- **تجدر الإشارة إلى أن هذه الآية وثيقة الارتباط بالآية قبلها وهي قوله تعالى:" فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم "(١) وهما واردتان في سياق تسليته صلى الله عليه وسلم عن إعراضهم وصدهم عنه صدودا بمثل قولهم عن الحق الذي جاءهم " وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)(٢)**
- **فالآية الأولى آمرة بتمسكه صلى الله عليه وسلم بالحق الذي أُنزل عليه، والآية الثانية وضحت علة الأمر بالاستمساك في الأولى، وهو أنه مصدر العزة والشرف والذكر الحسن له صلى الله عليه وسلم ولقومه، سواء أريد بهم: قريش لكونهم المقصودين بالكلام هنا،والقرآن قد رفع لقريش قدرها،وأكسبها شرفا يذكرون بسببه(فالقرآن نزل بلسان قريش فاحتاج أهل اللغات كلها إلى لسانهم كل من آمن بذلك، فشرفوا بذلك على سائر أهل اللغات)(٣)**
- **أو أريد بقومه: العرب كافة، وذلك كما يقول الطاهر (لأنهم شرفوا بكون الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم منهم ونزول القرآن بلغتهم،وقد**

---

١) الزخرف ٤٣

٢) الزخرف ٣٠ – ٣١

٣) التحرير والتنوير ٢٢١/٢٥

ظهر ذلك الشرف لهم في سائر الأعصر إلى اليوم، ولولاه ماكان للعرب مَن يشعر بهم من الأمم العظيمة الغالبة علي الأرض)(١)

- وإلى مثل هذا ذهب صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ بهذا الكلام النفيس (وأما قومه فقد جاءهم هذا القرآن والدنيا لا تحس بهم، وإن أحست اعتبرتهم على هامش الحياة، وهو الذي جعل لهم دورهم الأكبر في تاريخ هذه البشرية، وهو الذي واجهوا به الدنيا فعرفتهم ودانت لهم طوال الفترة التي استمسكوا فيها به. فلما أن تخلوا عنه أنكرتهم الأرض، واستصغرتهم الدنيا وقذفت بهم في ذيل القافية هناك، بعدأن كانوا قادة الموكب المرموقين. وإنها لتبعة ضخمة تُسأل عنها الأمة التي اختارها الله لدينه واختارها لقيادة القافلة البشرية الشاردة، إذا هي تخلفت عن الأمانة " وسوف تسئلون " وهذا المدلول الأخير أوسع وأشمل. وأنا إليه أميل)(٢).

- لذا جاء التعبير بالذكر هنا في حاق موضعه.

- ويستتبع من كون القرآن شرفا وصيتا حسنا له صلى الله عليه وسلم ولقومه، ذمّ من خالفهم وصدّ عن كتابهم، ففيه تعريض بالمعرضين عنه.

- مناسبة ثانية:

- ويجوز أن تكون الآية – محل الشاهد – جارية على لاحب السورة الكلي وسياقها العام، وهو الثناء على القرآن بأكثر من وصف، ومن ذلك وصفه – في مطلع السورة – بـ"الكتاب المبين " وبجعله قرآنا عربيا " إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون "(٣)

---

١) السابق

٢). في ظلال القران ٣١٩١/٥

٣) الزخرف٣

- ثم تتفرد السورة هنا بذكر وصف متن أوصاف القرآن لم يكد يُذكر في غيرها وهو قوله تعالى " وإنه في أم الكتاب لدينا لعلى حكيم "(١)

- ثم وُصِفَ القران – وسط السورة – بأنه الحق المُنَزَّل على رسولٍ يملك ناصية البيان، وذلك قوله (.. حتى جاءهم الحق ورسول مبين)(٢)

- وفي آخر السورة(لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون)(٣)

- والتعبير بالذكر ـ على هذا الفهم ـ في تمام الاتساق مع المقام الدائر حول تعديد أوصاف القرآن وبيان مقامه العالي بما تتضمنه كلمة " الذكر" من معاني الشرف والرفعة والذكر الجميل.

- ومما لا يخفى أن التعبير عن الشرف بالذكر مجاز مرسل،لأن سبب الشرف هو(الإقبال على الذكر وعلى ما بينه وشرعه،والاستمساك به والاعتناء بشأنه، فمن أقام هذا الدين كان شريفا مذكورا في ملكوت السماوات والأرض)(٤)

- <u>ولا أستبعد أن يكون غرض التعبير بـ " الذكر" هنا هو</u> مشاكلة التعبير به في جنبات السورة في غير موضع، ومن ذلك قوله تعالى" أفنضرب عنكم الذكر صفحا "(٥)

---

١) الزخرف٤

٢) الزخرف٢٩

٣) الزخرف٧٨

٤) نظم الدرر ١٠٦/١٠

٥) الزخرف ٥

وقوله " وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ **" (١)**

(مناسبة ثالثة)

- كما لا يمنع أن يكون " الذكر" هنا بمعنى " التذكير " ويصير المعنى:(أن هذا القرآن تذكير لك ولقومك تسألون عنه يوم القيامة فلا حُجة بعد التذكير)(٢)

١) الزخرف ٣٦

٢) في ظلال القران ٣١٩١/٥

المبحث الخامس
التعبير عن القرآن بالذكر في مقام
"التأكيد على كون القرآن مقرا للتذكر"

قد يَرد التعبيرُ عن القران بـ " الذكر في مقام الإشارة ولفت الانتباه إلى كون القران مقرا للتذكر ومستودعا للعبرة والانتفاع.ومن أبرز الأمثلة على ذلك قوله تعالى:

" وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا. يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا.لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا) الفرقان ٢٧ ــ ٢٩

فقوله " لقد أضلني عن الذكر " تفسير وتعليل لتمنيه في الآية السابقة " يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا ".

ـ وذهب غير واحد من أهل العلم إلى أنه قد يراد بـ " الذكر " هنا القرآن[1]

وأرى أن مناسبة التعبير بـ"الذكر" هنا جاءت من عدة وجوه:-

الوجه الأول:-

مناسبته للعلة من تنزيل الفرقان – كما جاءت في مطلع السورة – وهي "نذارة العالمين " فالنذارة مضمونها الوعظ والتذكير فلاءمها التعبير بـ"الذكر " لاشتماله على هذا الجانب من المعنى.

---

١) انظر: الكشاف ١٦٦/٣ وتفسير الرازي ٨/ ، والطبري٤٤٢/١٧ ، والبيضاوي ١٣٤/٢ ، روح المعاني ٨٤٤/٥ ونظم الدرر ١٣/٨ ، والتحرير والتنوير ١٥/١٩، وأبو السعود ٨٩/١ والقرطبي ١/١٣

الوجه الثاني:

مناسبة لفظة " الذكر " هنا لمقصود السورة وهو (ذكر موضع عظم القران)(١) فالتعبير بها هنا منظور فيه إلى معاني الشرف والرفعة والعلو.وذلك كله وغيره اقتضاه طعنهم في الكتاب والنبوة، وقولهم فيهما قولا عظيما، ومن ذلك:

أ-" وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه..."(٢)، "وقالوا أساطير الأولين اكتتبها..."(٣)

ومما قالوه في النبوة:-

أ-" وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق...)(٤)

(ب)" وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا "(٥)

(ج)" وإذا رأوك ان يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا "(٦)

***ـ وإذا استقام ذلك فالتعبير بـ" الذكر " هنا مناسب لحالة الندم والأسى التي عليها الظالم هنا لما يراه من رفع الله بهذا الذكر أقواما، وخفض آخرين.**

رفع الله أقواما جاءهم هذا الذكر فأقبلواعليه، وأحسنوا الانتفاع به.

---

١) تفسير القرطبي ١/١٣

٢) الفرقان ٤

٣) الفرقان٥

٤) الفرقان ٧

٥) الفرقان ٨

٦) الفرقان٤١

ووضع أقواماً جاءهم الذكر، وشاع بينهم، وأمكنهم الاستماع إليه،وتيسر لهم الانتفاع به،غير أن كل خليل صرف خليله عنه، وتعاون بعضهم مع بعض في ذلك.

فَرفْعُ الله أقواما بهذا الذكر دال على معاني الشرف والنباهة وعلو الشأن في حق هذا الذكر، وفي حق من آمن به وانتفع، وهذا صلب معنى " الذكر " فعبَّر به.

<u>الوجه الثالث:-</u>

جاء التعبير بـ " الذكر " هنا جريا على نسق السورة في التعبير بالذكر كما قوله تعالى من السوره ذاتها: (... حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا)(١)

***** ***** ***** *****

١) الفرقان ١٨

ومن الشواهد الجارية في سلك هذا المقام – كذلك – قوله تعالى

(إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ) يس ١١

فالآية هنا إحدى آيات سورة يس والتي (كان اختصاصها بغاية بيان البعث بسبب كونها قلبا)(١)

- **وعليه فالتعبير بالذكر هنا ملائم جدا لمقصود السورة الأعظم ـ وهو بيان البعث ـ وذلك لما يقتضيه ذلك من دوام الوعظ والتذكير به والتنبيه عليه لكونه غيبا،ومن أقسام الذكر(الذكر عن نسيان)(٢) فناسبه التعبير به.**
- **كما أرى التعبير بالذكر هنا قد حاز المناسبة من ملائمته للنذارة قبله، في " إنما تنذر "، ففحواهما: التذكير والوعظ والتنبيه فوقعت الملائمة بينهما من هذا الباب.**
- **فليس المراد هنا مجرد الإنذار، إنما مُراد به الإنذار النافع مَنْ أمن بالقران وسلك سبيله وانتفع بهديه وخشى مُنْزِلـــه بالغيب،فهذا هو الإنذار المترتب عليه البغية المرومة.**
- **وذلك كله يتحقق بالوعظ والتنبيه والتذكير، وهي معاني الذكر فأوثر التعبير به.**
- ***ـ ثم إن إنذارا مروم به ذلك، لَشَرفُ وذِكْرُ حسن لصاحبه.**

الأمر الذي لاءمه التعبير بالذكر بمعنى: الشرف والذكر الحسن.

---

١) نظم الدرر ٦٣/٩

٢) مفردات الراغب ٥٠٩/١

- **كما ألمح أن "الذكر " في هذه السورة له سمت خاص، وهو التركيز والتأكيد على تميز هذا " الذكر " عن غيره، وذلك في أكثر من موضع من هذه السورة.**
- **ففي قوله تعالى" إنما تنذر من اتبع الذكر"تأكيد على أن هذا الذكر نموذج متميز، من حيث أثره في أصحابه وانتفاعهم به، وإن أصحاب هذا الأثر وذلك الانتفاع هم المخصوصون بنذارة رسول الله صلى الله عليه وسلم.**

وفي الآية الأخرى من السورة(وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين)(١) جاء التركيز على تميز هذا الذكر وتفرده عن سائر جنس الكلام، فما هو بشعر ولا كهانة ولا أساطير الأولين، إنما هو ذكر وقرآن مبين.

***ـ كما أرى أن الإنذار المترتب عليه الانتفاع والاهتداء جدّ مناسب للتعبير بالذكر،من باب أُنذرفانتفع وذُكّر فتذكر.**

***ـ كما أرى – والله أعلم – أن التعبير بالذكر هنا فيه مشاكلة لوروده في قوله تعالى:**

(... إن هو إلا ذكر وقرآن مبين. لينذر من كان حيا)(٢) من السورة ذاتها.

***** ***** *****

---

١) يس ٦٩

٢) السابق

***- وبعد هذه السياحة القرآنية والتطواف الموجز في رحاب التعبير عن القرآن الكريم بـ (الذكر) في النظم القرآني نأتي إلى خاتمة البحث، حيث أهم النتائج وأبرز التوصيات.**

خاتمة الدراسة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، حمدا يوازي نعمه ويكافئ مزيده، خصنا بهذا الذكر الحكيم، فآتانا به ما لم يؤت أحدا من العالمين، فاللهم أوزعنا أن نشكر نعمتك التي أنعمت علينا وعلى والدينا وأن نعمل صالحا ترضاه وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين

وبعد

فلكل بداية نهاية، ولكل عمل غاية، وها هي نهاية هذه الدراسة، فقد آن لنا أن نحط الرحال أعقاب هذه الرحلة الميمونة التي تم التطواف فيها حول الدقائق واللطائف المفادة من التعبير عن القرآن بـ " الذكر " لنخلص إلى أن ما ورد من التعبير عن القرآن بالذكر هو مما يستأهل التأمل والتدبر، ويستحق المزيد من إعمال الذهن وكدّ الفكر لأهل النظر، فمجال البحث فيه فسيح ومتسع ويحتاج إلى مزيد من استجلاء الدقائق والحقائق،سيما لو كانت هذه الدقائق تمس كتاب الله تعالى.

***– وثمة نتائج وفق الله إليها، ويسر – بمعونته – الخروج بها من هذه التطوافة المباركة ومنها:–**

***– خلصت الدراسة إلى أن التعبير عن القرآن بالذكر قد كثر في مقام مجابهة المنكرين والمكذبين بهذا التنزيل نفسه، ومحاولة الحط من قدره، أو بتكذيب رسوله الذي أُنزل عليه.وذلك ببيان علو شرف هذا الذكر ذاتيا، وسمو قدر من**

أُنزل عليه، ورفعة قدر من أنزل لهم هذا الذكر، ولولاه ما صار لهم ذكر في العالمين.

***- وكذا كثر التعبير عن القرآن بالذكر للتنبيه والتأكيد على معاني الوعظ والتنبيه والتذكير بما يغفل عنه الناس مما لاتجب الغفلة عنه.خاصة في باب الحديث عن الأمم الغابرة ووجوب أخذ العبرة منهم.**

***- وكذا كثر التعبير عن القرآن بالذكر في مقام بيان حكمة إنزال هذا الذكر، وما يجب على أتباعه تجاهه.**

***- وكذا كثر التعبير عن القرآن بالذكر في مقام التأكيد على أن هذا القرآن مقر للتذكر ومستودع للفائدة، وبيان أن صدود الكافرين به عنه ليس لخلل فيه أو عيب – وحاشاه ذلك – إنما ذلك لشقاقهم وعنادهم واتباعهم الهوي (بل الذين كفروا في عزة وشقاق).**

***- كما بينت الدراسة كيف أبدع النظم القرآني الفريد في توظيف التعبير بالذكر، بمراعاة خصوصيات السياق، وأحوال التركيب، وتآزر العلاقات لا على مستوي الآية الواحدة، بل تجاوزها إلى مراعاة السياق الكلي للآيات، والمقصود الأعظم للسورة.**

***- كما تفتح الدراسة لطلاب العلم أبوابا جديدة من البحث في الأسرار البلاغية للتعبير عن القرآن ببقية الأسماء والصفات التى وردت في البيان القرآني من مثل (الكتاب، الروح، التنزيل، النور....) فوراءها من الأسرار ما يستأهل التشمير عن ساعد الجد و يفتح الله على من يشاء من عباده.**

هذا وصلى الله وسلم وبارك على من أُنزل هذا الذكر على قلبه تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة، وشفاء لما في الصدور

والله أسأل أن يتقبل هذا الجهد خالصا لوجهه الكريم، وأن يفهمنا مراده من كتابه، وأن يستعملنا في خدمته وتدبره، والقيام بحق النصيحة له على الوجه الذي يرضيه وأن يرفع ذكرنا بالقرآن بين الصالحين من عباده في الدنيا والآخرة

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه
معوض محمد على الخولي
قسم البلاغة والنقد
كلية اللغة العربية (إيتاي البارود)
جامعة الأزهر الشريف

قائمة المصادر والمراجع

م	بيان أهم المصادر و المراجع
١	تفسير أبي السعود . ط. دار إحياء التراث العربي . بيروت
٢	تفسير البحر المحيط . أبي حيان الأندلسي . ت مجموعة . دار الكتب العلمية . بيروت
٣	تفسير التحرير والتنوير ـالطاهر بن عاشورـ دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس– ١٩٩٧ م
٤	تفسير السعدي المسمى(تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ـ تحقيق محمد زهري النجار ـ ط المؤسسة السعيدية بالرياض
٥	تفسير الطبري . ت:د عبد الله عبد المحسن التركي . ط دار هجر بالقاهرة ـ أولى ٢٠٠١ م
٦	تفسير الفخر الرازي . دار الفكر للطباعة والنشر
٧	تفسير الكشاف(ط. دار إحياء التراث العربي)
٨	تفسير روح المعاني . ط.دار إحياء التراث العربي . بيروت
٩	تفسير فتح القدير ـ للشوكاني ـ ط المكتبة العصرية . بيروت ـ راجعه وعلق عليه: هشام البخاري وخضر عكاري ـ أولى ١٩٩٦م
١٠	تفسير في ظلال القرآن . سيد قطب . دار الشروق ـ السادسة ـ ١٩٧٨م
١١	تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور . الإمام البقاعي . نسخ وتنسيق مكتبة مشكاة الإسلامية

١٢	العزف علي أنوار الذكر د. محمود توفيق سعد ط. دار الكتب الجامعية. شبين الكوم ـ مصر ـ أولى ـ ١٤٢٤هـ
١٣	مفردات ألفاظ القرآن ـ الراغب الأصفهاني ـ مكتبة الدرر السنية
١٤	من أسرار التعبيرالقرآني: دراسة تحليلية لسورة الأحزاب ـ د محمد أبوموسى ـ الثانية ـ١٤١٦هـ ـ مكتبة وهبة

الفهرس

م	الموضـــــــوع	الصفحة
	المقدمة	٧٦٥
١	تمهيد	٧٦٨
٢	المبحث الأول : التعبير عن القرآن بالذكر في مقام (التكذيب بالتنزيل وبالرسالة)	٧٧٠
٣	المبحث الثاني: التعبيرعن القرآن بالذكر في مقام (بيان حكمة إنزال هذا الذكر)	٧٨٠
٤	المبحث الثالث التعبير عن القرآن بالذكر في مقام (الحديث عن الأمم السابقة للاتعاظ بها والتذكير من الغفلة)	٧٨٥
٥	المبحث الرابع: التعبير عن القرآن بالذكر في مقام التنويه بشرف القرآن وعلو شأنه	٧٨٨
٦	المبحث الخامس: التعبير عن القرآن بالذكر في مقام التأكيد على كون القرآن مقرا للتذكر	٧٩٨
٧	الخاتمة	٨٠٤
٨	قائمة المصادر والمراجع	٨٠٧
٩	الفهرس	٨٠٩